الفصل الرابع

قضايا أساسية فى دراسة لغة الأدب

٤-١ .

عندما تثار قضية قضية الأسلوب تبرز دائما فى المقدمة مسألة التمييز بين نوعين أساسيين من الأساليب : هما الأسلوب العلمى Scintific Style والأسلوب الأدبى Literary Style . ولسنا بحاجة إلى استقصاء ما ورد فى هذه المسألة من أقوال فى كتب النقد العربية فإن بعضها يدل على سائرها . ولعل من أجمع ما كتب فى ذلك قول الأستاذ أحمد الشايب فى كتابه الجيد «الأسلوب» بعد أن أورد نصين فى موضوع واحد هو وصف الأهرام ، وعزا أولهما إلى الأسلوب العلمى ، وثانيهما إلى الأسلوب الأدبى .

يقول الأستاذ أحمد الشايب ما نصه [1] :

بالموازنة بين النصين نستطيع أن نفرق بين الأسلوبين العلمى والأدبى فيما يلى :

١- الأصل الأول الذى قام عليه الخلاف بين الأسلوبين هو دخول الانفعال أو (العاطفة) فى الأسلوب الأدبى بجانب أهم الحقائق والأفكار . وأما العلمى فإن المعارف

---

(١) سيطول الاقتباس بعض الشىء ولذا ننبه على بداية الاقتباس حتى لاتختلط آراء الأستاذ الشايب بآرائنا .

العقلية هى الاساس الأول فى بنائه . وقلما نجد للانفعال أثرا واضحا ، لذلك كانت عنايته باستقصاء الأفكار بقدر عناية زميله بقوة الانفعال ، ولسنا نعدو الصواب إذا قلنا : إن الأسلوب العلمى لغة العقل ، والأدبى لغة العاطفة .

٢- ويتبع ذلك أن يكون الغرض من الأسلوب العلمى أداء الحقائق قصد التعليم وخدمة المعرفة وانارة العقول . ولكن الغاية فى الأسلوب الأدبى هى إثارة الانفعال فى نفوس القراء والسامعين ، وذلك بعرض الحقائق رائعة جميلة كما أدركها أو تصورها الكاتب الأديب ، وبذا يجمع الأسلوب الأدبى بين الافادة والتأثير .

٣- تمتاز العبارة الأولى بالدقة والتحديد والاستقصاء ، ولكن الثانية تعنى بالتفخيم والتعميم والوقوف عند مواطن الجمال والتأثير .

٤- هذه المصطلحات العلمية ، والأرقام الحسابية ، والصفات الهندسية التى هى فى الأسلوب العلمى مظهر العقل المدقق ، يقابلها هذه الصور الخيالية ، والصنعة البديعة ، والكلمات الموسيقية التى هى فى الأسلوب الأدبى مظهر للانفعال العميق .

٥- والعبار الأولى تمتاز بالسهولة والوضوح ، إذ كانت صادرة عن عقل رزين فاهم ، كما تمتاز الثانية بالجزالة والقوة ما دامت تعبر عن عاطفة قوية حية فكانت كل منهما موسيقا صادقة لمعناها .

٦- ومن ناحية التكرار لانرى فى الأسلوب العلمى تكرار الفكرة وترديدها ، ولكن الأسلوب الأدبى يأخذ المعنى الواحد ، ويعرضه علينا فى عدة صور بيانية مختلفة [٢] .

---

(٢) هنا ينتهى نص الأستاذ الشايب . وقد أخذناه عن كتاب الأسلوب الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ص ص ٥٩-٦٠ .

ويتضح من القواعد التى وضعها صاحب كتاب الأسلوب للتمييز بين الأسلوبين العلمى والأدبى :

أولا : أنه يعتمد على تقرير العقل الرزين مصدرا ، وعلى الافادة وخدمة المعرفة غاية الأسلوب العلمى . كما يعتمد على تقرير الانفعال (أو العاطفة) مصدرا ، وعلى الاثارة إلى جانب الافادة غاية للأسلوب الأدبى .

ثانيا : انه يضفى على العبارة فى الأسلوب العلمى صفة الدقة والتحديد والاستقصاء والسهولة والوضوح ، على حين يصف العبارة فى الأسلوب الأدبى بأنها تعرض الحقائق رائعة جميلة ، وأنها تمتاز بالجزالة والقوة ، والكلمات الموسيقية .

أما نحن فنرى أن جل ما ذكره صاحب كتاب الأسلوب ربما كان صادقا تمام الصدق من زاوية حساسية القارىء المثقف المتمرس تجاه النصوص ، ولكن جميع التصورات والمصطلحات المستخدمة عصية جدا على التقنين العلمى ، فكل أولئك مفاهيم نسبية مرنة إلى حد كبير . وأنى لنا أن نميز على وجه الدقة مقدار السهولة أو الوضوح أو الجزالة أو القوة وغير ذلك من المصطلحات ما لم نستند فى التحديد إلى معايير موضوعية تتخذ أساسا للحكم [٣] .

وإذا استطاعت حساسية القارىء المتمرس المثقف أحيانا أن تكون معيارا للتمييز بين نصين : علمى وأدبى - فإن ذلك كثيرا ما يكون لأن بعد الفجوة بين خصائص النصين تكون من الوضوح بحيث لاتجهله الحاسة الخبيرة ، أو - بعبارة أخرى - لأن كلا النصين يحتل أقصى نقطة تتركز فيها الخصائص المميزة على نحو واضح .

---

(٣) انظر أيضا مقاييس نقد العاطفة التى ساقها الأستاذ الشايب فى كتابه أصول النقد الأدبى وتعليقنا عليها ف ١ - ٥ من هذا الكتاب .

أما حين تمتزج الخصائص فى درجات متفاوتة بين أقصى نقطتين فإن هذه الحساسية كثيرا ما تخذل صاحبها حين يفزع إليها ، كذلك يكون الأمر حين تحاول تحديد درجة حرارة المريض بوضع راحة اليد على جبهته دون أن تستخدم الآلة المخصصة لذلك وهى الترمومتر الطبى .

وحين لاحظ الباحثون وجود درجات متفاوتة من الأسلوب تتدرج ما بين الأسلوب الأدبى والأسلوب العلمى المحض ظهرت فكرة تعترف بوجود قسيم ثالث شاعت تسميته بالأسلوب العلمى المتأدب . وكان المعتمد فى هذا التصنيف أيضا على الذوق.

وهكذا ما تزال قضية التمييز الموضوعى بين الأسلوب العلمى الخالص والأدبى الخاصة واستنباط المعايير لتمييز الدرجات المتفاوتة بينهما - ما تزال تعد - فى رأينا - من المسائل التى تشكل تحديا أمام الدارسين لأساليب العربية .

٤-٢ .

أما مسألة التمييز بين لغة الشعر ولغة النثر فربما كانت أيسر على القارىء والباحث كليهما بادى النظر . وهذا حق إذا قبلنا معيار الشكل وهو الوزن والقافية أساسا للتمييز على حد تعريف قدامة بن جعفر المشهور للشعر بأنه «كلام موزون مقفى دل على معنى» [٤] . ومن المعلوم أن هذا التعريف لم يكن موضع تسليم من لدن أرسطو حتى الآن عند من يرون أن للشعر بالاضافة إلى الوزن والقافية لغة خاصة يمتاز بها مما ليس بشعر ، وأن بعض النثر قد تتوافر له من خصائص الشعرية ما يجعله يقترب من الشعر درجات وان فاته شكل الشعر ، كما أن بعض الموزون المقفى من

---

(٤) نقد الشعر . ص ٢ ، ليدن ، ١٩٥٦ . (عن البيان العربى ، طبانة ، القاهرة ، ط ٦ ، ١٩٧٦، ص ١٣٩) . وقد أضاف ابن رشيق شرطا رابعا هو النية (انظر العمدة : ١١٩/١) .

الكلام يفتقد من خصائص لغة الشعر ما يبعد به عن الشعر الحق درجات . وهذا الرأى - كما ذكرنا - قديم ينزع بأصوله إلى كتاب الشعر لأرسطو وشروح هذا الكتاب عند فلاسفة المسلمين ، كما ظهر واضحا فى كثير من آثار التراث كمقدمة ابن خلدون ، وكتاب «المنهاج» لحازم القرطاجنى (٥) . وقد دفعت هذه الحقيقة ، نعنى وجود خصائص شعرية بدرجات متفاوتة فى بعض النثر ، وافتقادها فى بعض ما هو موزون مقفى - بعض المنشئين العرب إلى أن يستحدثوا تحت تأثير الآداب الأوربية ما سمى بقصيدة النثر أو الشعر المنثور Poetry in Prose .

وينشأ عن هذه المناقشة أننا إذا نحينا الإطار الشكلى من الوزن والقافية جانبا - وجدنا أنفسنا أمام مشكلة حقيقية حين نريد أن نميز لغة الشعر من لغة النثر . وهذه مسألة أخرى تضاف إلى مسألة التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب (ف ٤-١ ٠) . ولاشك أن أفضل حل لهاتين المسألتين لا يتأتى إلا بمحاول تحليل لغة النصوص كما أسلفنا .

٤-٣ .

ومسألة ثالثة يمكن أن يلتمس حلها فى تحليل لغة النصوص : تلكم هى تنوع الأساليب بتنوع الاجناس الأدبية . ولعل من أهم الأفكار المستنيرة التى سبق إليها صاحب كتاب «الأسلوب» رحمه الله دعوته إلى اعتبار دراسة الأسلوب بديلا للبلاغة القديمة ، وإلى أن تشتمل هذه الدراسة - فيما تشتمل على دراسة ما تتميز به فنون الأدب المختلفة كالمقالة والمقامة والخطبة والجدل والمناظرة وغيرها . وبالرغم من أن

---

(٥) بسطنا القول عن ماهية الشعر عند الفلاسفة والنقاد المسلمين فى كتابنا عن القرطاجنى الذى أسلفنا إليه الاشارة .

المنظور الذى نعبر عنه فى هذا الكتاب يختلف اختلافا كبيرا عما تضمنه كتاب الأسلوب فإن وضع المسألة فى ذاتها يبقى صحيحا تماما .

والسؤالان الواردان هنا إذن هما : هل يتميز كل جنس من أجناس الأدب بسمات أسلوبية مميزة ؟ . وهل تتنوع السمات الأسلوبية داخل العمل الأدبى الواحد تبعا لاختلاف المؤثرات التى تكيف البنية اللغوية والفنية للنصوص ؟ .

٤-٤ .

تضعنا الفقرات الثلاث السابقة أمام مشكلات ثلاث تتعلق جميعها بالخصائص الأسلوبية للغة الأدب . ولن يتيسر لنا فى هذا الكتاب مناقشة هذا الموضوع من جوانبه المختلفة باستخدام كافة المعايير الموضوعية الممكنة . ومن ثم سنصرف اهتمامنا إلى معيار واحد من بين هذه المعايير هو القياس الكمى الاحصائى .

ومن الطبيعى أن يكون لعلاج «لغة الأدب» منظوران : أحدهما «لغوى» والآخر «أدبى» ، وأن نتوقع من اللغويين والنقاد عملا دائبا نشطا فى محاولة تشخيصها . ويبرز النقد الشكلى كواحد من أهم الاتجاهات النقدية التى أولت عنايتها لتحليل لغة العمل الأدبى ، وهذا ما عبر عنه أوضح تعبير الناقد الانجليزى أيفور أرمسترونج ريتشاردز I. A. Richards بنصه الشهير فى كتابه «مبادىء النقد الأدبى» تحت عنوان : «الوظيفة المزدوجة للغة Two Uses of Languge . وهذا هو النص :

«قد تستخدم القضية من أجل الاشارة reference التى تحدثها سواء كانت هذه الاشارة صادقة أم كاذبة . وهذا هو الاستعمال «العلمى» للغة . ولكن القضية قد تستخدم أيضا من أجل ما تولده الاشارة التى تحدثها من آثار فى الانفعال والموقف . وهذا هو الاستعمال «الانفعالى» للغة . والتمييز بسيط متى ما فهمناه بوضوح . فقد

تستخدم الألفاظ أما لأجل ما توجده من اشارات وإما لأجل المواقف والانفعالات التى تعقب هذه الألفاظ» [٦] .

وتأتى أهمية هذا النص من ظهوره فى عام ١٩٢٤ حين لم تكن الدراسات اللغوية فى أوربا الغربية وأمريكا - وخاصة مدرسة ل . بلومفيلد Leonard Bloomfield قد أولت جانبا من عنايتها لدراسة القضايا المتعلقة بلغة الأدب عامة ولغة الشعر خاصة مركزة اهتمامها على قضايا علم اللغة الخالص . ولم تؤت مقولة ريتشاردز ثمارها إلا فى بعض ما عولج من قضايا حول الدلالة اللغوية Semantics .

وبالرغم من دعوى ريتشاردز أن التمييز بين الاستعمالين بسيط - لم تمض أفكاره هذه بلا معارضة حتى بين النقاد أنفسهم ، وكان من بين معارضيه الناقد ج . ك. رانسوم J. C. Ransom والناقدة ايزابيل هانجر لاند I. Hungerland [٧] . وقد أدى الجدل النقدى حول التمييز بين لغة العلم ولغة الأدب إلى تزايد اهتمام اللغويين بها وحفزهم على انضاج مفاهيمهم وتصوراتهم المنهجية وتحسين وسائل الدراسة . وبذلت محاولة هامة للانتقال من دراسة قواعد تركيب الجملة Sentence Grammar إلى قواعد تركيب النص (أو الخطاب) Text (or discourse) Grammar .

---

(٦) أ . أ . ريتشاردز ، «مبادىء نقد الأدبى» ترجمة محمد مصطفى بدوى القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٣٣٩ .

(8) Brain Lee, "The New Criticism and the Language of poetry" in Essays on Style and Language, pp 34 - 37 .

انظر :

T.A. Van Dijk, "Some Aspects of Text - Grammars A study in Theoritical Linguistics and Poetics", Hague, Mouton, 1972 .

وهكـذا أصبحـت قضايا لغة الأدب فى مركـز الاهتمام بالنسبة للغويين . ونشطت الدراسات فى اللسانيات الأسلوبية Linguistic Stylistics وتحليل لغة النصوص ، وتعددت الاتجاهات تبعا لتعدد الأسس النظرية والفلسفية بين المدارس اللغوية . وكان من بين الجوانب التى أخذت نصيبا طيبا من الاهتمام الأسلوبيات الاحصائية Statistic Stylistics الذى يقع فى إطارها ما نتناوله فى هذا الكتاب من قضايا .